

أ.د. صالح بن سعد اللحيدان

اعتراف العلماء والمؤرخين بالخطأ

في السياسة البحثية لدى غالب العلماء والمؤرخين منذ القدم إنما تقوم على الطرح التلقائي ومن مجرد الحفظ والتلقي ومن السماع ذلك السماع الذي يحتاج أول ما يحتاج إليه إلى التثبت من النص ما له وما عليه.

وأجز وأيم الحق أن القوم في تلك الأحايين ينشدون الصواب على صريح من قول قوي متين لكن ليس كل مجتهد مصيباً.

ولعل السبب الذي وقع فيه أولئك إنما يعود الى تدوين الأخبار والآثار على عجلة موثوقة لكنها ليست كذلك.

وهنا جاء كثير من المتأخرين ممن كتب في الرواية والأخبار واستشهدوا بما دونه الأقدمون فتكرر الخطأ بواضحة لمن ألقى السمع وهو شهيد.

ولعلي أضع منهجاً حياً قائماً لقومي في هذا الحين يتبين منه أصل الخطأ مما حدا بالبعض الاعتذار من الخلل في تدوين العلم وتدوين التاريخ.

وهذا المنهج حري به أن يقيم الموازين ويقيم السبيل في التثبت وتدوين اليقين.

أبين هنا أن أصل الخطأ إنما هو من عدم التنبه إلى الراوي الذي أصلاً نقل الرواية وعليه أخذ العلماء والمؤرخون الآثار إلخ.

فالراوي ترد روايته ولا تقبل أبداً إذا كان متهماً بالكذب إذا كان فاحش الغلط إذا كان سيئ الحفظ

إذا كان صاحب بدعة يدعو إليها إذا كان ينشد نفسه ويريد الصيت إذا كان يخلط بين الخبر والرواية والأثر والمرفوع والموقوف والقاعدة والنص.

وهذا وجدته عند طه حسين وأحمد أمين ومحمود شلبي والقليل عند العقاد دع عنك سلامة موسى وجرجي زيدان وسلام البحيري فإنهم كحاطب ليل مع قصد لا شك مريب.

إذاً هو من يجب نظره والبحث عن شأنه أعني الراوي دون سواه ولا كلام.

وليس يعذر من وقع في الزلل أنه مجتهد كلا لأن الاجتهاد هنا لا محل له لأن التحقق ميسور لئلا يقع الخلل.

ولهذا وقع في المغني لابن قدامة ووقع في المحلى لابن حزم بعض الآثار الضعيفة لكن عذر القوم أنهم هكذا وقع لهم إلا أن المحقق أن يتثبتوا وهذا ميسور

وقد وجدت في كثير من التقارير العلمية وكذا الفتاوى في بعض البلاد العربية ما موجبه إعادة النظر وهذا ممكن أن يكون.

عصور الاحتجاج عند اللغويين.. رأي مختلف



د. عبدالرزاق الصاعدي

اضطرب علماء العربية فيما يسمّونه عصور الاحتجاج أو الحدود الزّمانيّة اضطرابًا واضحًا، فلم يكن لهم رأيٌ صريح حاسم في تحديدها في الحاضرة والبادية، وكلّ ما راج عند المتأخّرين مستنبطٌ من أقوالٍ لبعضهم وأحكام على بعض الشّعراء كابن هَرْمة وبشّار وأبي تمام، فزمن الاحتجاج عند بعضهم منتصف القرن الثّاني أو نهايته في الحواضر، ويزيدون على ذلك قرنين فيما يخصّ البادية. وغالَى أبو عمرو بن العلاء في تحديد زمن الاحتجاج فأخرج الفرزدق وجريرًا من شعراء الاحتجاج، وعدَّهم مولدَين. قال السيوطي: كان أبو عمرو بن العلاء يقول: لقد حَسُن هذا المولد حتى هممت أن آمُر صِبياننا بروايته، يعني بذلك شِعرَ جرير والفرزدق، فجعله مولّدًا قياسًا بشعر الجاهليّة والمُخضرمين، وكان لا يَعُدّ الشّعر إلا ما كان للمتقدّمين، وقال الأصمعيّ: جلسْتُ إليه عَشر حِجَج، فما سمعتُه يحتجُّ ببيت إسلاميّ. وسُئِل عن المولَّدين فقال: ما كان من حَسَنٍ فقد سُبقوا إليه، وما كان من قبيحٍ فهو من عندهم، ليس النمط واحدًا، هذا مذهب أبي عمرو وأصحابه كالأصمعيّ وابن الأعرابيّ، أعني أن كلَّ واحد منهم يذهبُ في أهل عصره هذا المذهب، ويقدم مَنْ قبلهم، وليس ذلك لشيء إلا لحاجتهم في الشّعر إلى الشّاهد، وقلةِ ثقتهم بما يأتي به المولَّدون (المزهر 2/ 488).

قلت: وهذا الذي جاء في كلام أبي عمرو هو أقرب إلى المعيار النقديّ، فلا يُعتدّ به، وإجماع النحويّين شبه منعقد على أنّ شعر الفرزدق وجرير والأخطل حجّة في العربيّة.

* والشّعر عند نقاده المتقدمين لم يزل ينحطّ في فصاحته وجودته مع تعاقب الأجيال، قال ابن رشيق (ت 456هـ): «طبقات الشّعراء أربع: جاهلّي قديم، ومخضرم، وهو الذي أدرك الجاهليّة والإسلام، وإسلاميّ، ومُحدَث. ثمّ صار المحدثون طبقات: أولى وثانية على التّدريج، وهكذا في الهبوط إلى وقتنا هذا، فليعلم المتأخّر مقدار ما بقي له من الشّعر فيتصفّح مقدار من قبله لينظر كم بين المخضرم والجاهليّ، وبين الإسلاميّ والمخضرم، وأنّ المحدث الأوّل -فضلًا عمّن بعده- دونهم في المنزلة، على أنه أغمض مسلكًا وأرقّ حاشية، فإذا رأى أنّه ساقةُ الساقة تحفّظ على نفسه، وعلم من أين يُؤتى، ولم تغرُرْهُ حلاوة لفظه، ولا رشاقة معناه، ففي الجاهلية والإسلاميين من ذهب بكل حلاوة ورشاقة، وسبق إلى كلّ طلاوة ولباقة» (العمدة 1/ 233، 233).

وقال السّيوطيّ في الاقتراح: «أجمعوا على أنّه لا يحتجّ بكلام المولّدين والمحدثين في اللغة العربيّة» (الاقتراح 120)، ثمّ ذكر فائدة، فقال: «أوّل الشّعراء المحدثين: بشّار، وقد احتجّ سيبويه في كتابه ببعض شعره تقرّبًا إليه؛ لأنّه كان هجاه لتركه الاحتجاج بشعره. ذكره المرزبانيّ وغيره» (الاقتراح 122)، ولا أظن هذا التعليل يصحّ، وإنما رأى سيبويه فصاحة بشار، ورأى شعره أهلًا للاحتجاج به، فسيبويه أكبر من أن يجامل أو يداهن ويغش النحويين في لغتهم.

* ونقل ثعلبٌ عن الأصمعيّ (وهو من أرباب التشدّد في اللغة) قوله: «خُتِمَ الشّعر بإبراهيم بن هَرْمة، وهو آخر الحُجج» (الاقتراح 122، 123)، ومعلوم أنّ وفاة ابن هرمة كانت بعد 150هـ.

* وذكر البغداديّ في مقدّمة الخزانة كلامًا مطوّلاً في هذا، وقسّم الشّعراء إلى طبقات، قال: «قال الأندلسي [أبو جابر الرُّعيني ت 779هـ] في شرح بديعيّة رَفِيقه ابن جابر [الهواري ت 780هـ] (780هـ): عُلُوم الأدب سِتَّة: اللُّغَة والصرف والنّحو والمعاني والبيان والبديع، والثّلاثة الأُول لا يستشهد عليها إلا بكلام العَرَب، دون الثّلاثة الأخيرة فإنّهُ يستشهد فيها بكلام غيرهم من المولّدين؛ لأنّها راجعة إلى المعاني، ولا فرق في ذلك بين العَرَب وغيرهم، إذ هو أمرٌ راجع إلى العقل، ولذلك قُبِل من أهل هذا الفَنّ الاستشهاد بكلام البحتري وأبي تمام وأبي الطّيّب وهلمّ جرّا» (خزانة الأدب 1/ 5).

وقال البغداديّ: «أقول: الكلام الّذي يستشهد به نوعانِ: شعر وغيره، فقائل الأوّل قد قسمه العلماء على طَبَقات أربع:

* الطَّبَقة الأولى: الشُّعَراء الجاهليّون، وهم قبل الإسلام كامرئ القَيْس والأعشى.

* [الطبقة] الثّانية: المخضرمون، وهم الذين أدركوا الجاهليّة والإسلام كلبيد وحسان.

* [الطبقة] الثّالثة: المتقدّمون، ويُقال لهم الإسلاميون، وهم الذين كانوا في صدر الإسلام، كجرير والفرزدق.

* [الطبقة] الرّابعة: المولّدون، ويُقال لهم المحدثون، وهم مَنْ بعدَهم إلى زَماننا، كبشار بن برد وأبي نواس.

فالطبقتان الأوليان يستشهد بشعرهما إجماعًا، وأمّا الثّالثة فالصّحيح صِحّة الاستشهاد بكلامها، وقد كان أبو عمرو بن العلاء وعبد الله بن أبي إسحاق والحسن البصريّ وعبد الله بن شُبْرمة يُلَحّنون الفرزدقَ والكميتَ وذا الرُّمّة وأضرابَهم» (خزانة الأدب 1/ 5، 6). وقال: «وأمّا الرّابعة فالصّحيح أنّه لا يستشهد بكلامها مطلقًا وقيل يستشهد بكلام من يوثق به منهم واختاره الزّمخشريّ وتبعه الشّارح المحقّق (يعني الرضي ت 686هـ) فإنّه استشهد بشعر أبي تمّام في مواضع عدّة من هذا الشّرح واستشهد الزمخشري أيضًا في تفسير أوائل البقرة من الكشاف ببيت من شعره، وقال وهو وإن كان محدثًا لا يستشهد بشعره في اللغة فهو من علماء العربية فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه إلا ترى إلى قول العلماء الدليل عليه بيت الحماسة فيقنعون بذلك لوثوقهم بروايته وإتقانه» (خزانة الأدب 1/ 6، 7).

وقال ابن الطيب الفاسي في فيض نشر الانشراح: «وبعضهم فرّق بينهما، فقال: المولدون من بعد الإسلام كبشار، والمحدثون من بعدهم كأبي تمّام، وفي ذلك كلام طويل الذيل، أودعناه غير كتاب، كشرح شواهد البيضاوي وشرح كفاية المتحفّظ، وشرح نظم الفصيح، وحاصله على طريقة الاختصار أنّ الشعراء طبقات، جاهليون....إلخ» (فيض نشر الاقتراح 1/ 611).

* فأنت ترى أنّ أهل اللغة يتفاوتون في تحديد عصور الاحتجاج، لكن السائد عند المتأخّرين منهم أن عصور الاحتجاج عصران، ينتهي أوّلهما في منتصف القرن الثاني في الحواضر، وأمّا ثانيهما فعصر الاحتجاج في البادية، وهو مختلف فيه، فيرى بعضهم أنه ينتهي بنهاية القرن الثالث، ويرى بعضهم أنه منتصف القرن الرابع، وحدّده بعضهم بنهايته، ويشهد لهذا الأخير صنيع أبي منصور الأزهري (ت 370هـ) في التهذيب ونقله عن أعراب نجد الذين وقع في أسرهم، وكذلك صنيع الجوهري (ت 392هـ) إذ ذكر في مقدمة الصحاح أنّ من مصادره مشافهته العرب العاربة في ديارهم بالبادية. (من مقال لي نشر في مدوّنة مجمع اللغة الافتراضي بتاريخ 25 رمضان 1438هـ).

ومن النحويين قبل ابن مالك من يتوسّع في معيار الشاهد، من جهة العصر والفصاحة، تهاونًا وخروجًا من الإطارين الزماني والمكاني أو لثقتهم بفصاحة الشاعر وإن كان مولّدا، وقد وقع في كتاب سيبويه شيء من هذا، ففيه شواهد لمولدين، وكذلك وقع لأبي علي الفارسي وابن جني والزمخشري والرضي والجَندي، فقد يستشهدون بشعر بشّار وأبي نواس وأبي تمام ومطيع بن إياس وخلف الأحمر (شرح شواهد الإيضاح لابن بري 112، والتمثيل بالشعر عند ابن مالك للشريف 260)، ورأيت عبدالقاهر يستشهد بشعر ابن المعتز وأبي فراس الحمداني (المقتصد في شرح الإيضاح 1/ 34، 610)، وذكر محمود الدراويش أنه وجد للجَندي (ت 700هـ) في كتابه الإقليد استشهادًا وافرًا «بشعر الطبقة الرابعة كابن الرومي وأبي فراس الحمداني والمتنبي وأبي نواس والأَبِيْوَردي» (المقتصد في شرح الإيضاح 1/ 34، 610).

فإن كان الشاهد في المعاني قبلوه، فقد يستشهدون فيها بشعر البحتري والمتنبي والحريري، قال ابن جني بعد أن استشهد ببيتين للمتنبي: «ولا تستنكر ذكر هذا الرجل -وإن كان مولدًا- في أثناء ما نحن عليه من هذا الموضع وغموضه، ولطف متسرَّبه؛ فإن المعاني يتناهبها المولدون كما يتناهبها المتقدّمون. وقد كان أبو العباس [المبرد] -وهو الكثير التعقّب لجلّة الناس- احتجّ بشيء من شعر حبيب بن أوس الطائي، في كتابه في الاشتقاق, لما كان غرضه فيه معناه دون لفظه» (الخصائص 1/ 24).

* وهذا التأطير الزماني مقبولٌ بل واجب في النحو والتصريف من أجل بناء معيارية مستنبطة من نصوص لم يداخلها اللحن، وأما المعجم فينبغي أن يُستثنى من ذلك؛ لأنّ اللحن إنّما فَشَا في التراكيب والبِنَى الصرفية، وأمّا الوحدات المعجميّة فبقيت -في الجملة- سليمة إلى القرن الثامن، وبخاصة في البادية، بل إننا في زماننا اليوم نجد ألفاظًا من الغريب والحوشي متوارثة من فصيح العربية مما يظنه اللغوي من كلام العامة فتفجأهُ مطالعةُ المعاجم إذ يجد فيها ما يُصدِّق كلامَهم، فإن كانوا يحافظون على الغريب والحوشي فهم أولى بغيره، فعلينا ألا نستهين بالمعجم البدوي، وبخاصّة حين يكون واسع الحيّز المكاني، في قبائل عدة، على الشرط الذي بنيتُهُ في معايير الفوائت الظنية.

* ويُصدِّقُ منهجي في مدِّ عصر الاحتجاج في المستوى المعجمي دونَ النحويّ والصرفيّ أنّ الزمخشري كان يُدوِّن سماعاتِه في القرن السادس، ويروي عن أعراب الحجاز، ويُمعجم كلامهم في معجمه الفذّ أساس البلاغة، ورأيت الصغاني يفعل مثل فعله، ولكن بحذر، ثم فَعَلَ فعلهما الزَّبيديُّ في التاج، ولكن على استحياء شديد.

رابغ: حفظ تراث وبحث عن مندثر



د. عبدالمحسن بن طما

شهدت رابغ أهم الحوادث عبر العصور التاريخية، وأتاح لها موقعها على طريق القوافل وبمقربة من طريق الهجرة النبوية الشريفة ما يميزها عن غيرها من الأماكن المجاورة لها وأعطاها زخمًا تاريخيًا خاصا، ونجد اليوم في بعض نواحيها عدداً من الأماكن الأثرية والتراثية التي ورد ذكرها في كثير من المصادر التاريخية، ويمكن اختصارها فيما يلي:

1- الجحفة: ومن أشهر مواقيت الحج، ومن أهم القرى على طريق القوافل، وقد اندثرت في القرن السادس تقريبا. ومازالت قلعتها الشهيرة شامخة وظاهرة للعيان. ويمكن مشاهدة أساسات مبانيها وفلج عينها.

2- آثار ودّان: وودان هذه واقعة إلى الجنوب الغربي من الأبواء على طريق الحج والقوافل، وقد كانت من أمهات القرى الحجازية، ولها تاريخ يصعب عرضه في عجالة، وقد اندثرت في وقت مبكر.

3- المواقع التي يمر بها طريق الهجرة النبوية الشريفة في شرق رابغ: وهي الخرار وثنية المرة ووادي أحياء أبيتر وفخذوات وغيرها، وهي من أشهر المواقع التي مر بها النبي صلى الله عليه وسلم في هجرته إلى المدينة، وتلك المواضع ذكرتها المصادر التاريخية بإسهاب، قال ابن إسحاق: «فسلك بهما الخرار، ثم سلك بهما ثنية المرة». [سيرة ابن هشام، 2- ص97]، وفي الخبر المروي عن عبد الله بن حجر إنه قال: «... فسلك بهما ثنية الزمحاء ثم سلك بهما ثنية الكوبة ثم قبل بهما أحياء، ثم سلك بهما ثنية المرة « . [المعجم الكبير: الطبراني1-223]. والزمحاء هي الدمجاء.

4- المواقع الأثرية في شرق رابغ

أ- بحران: وهو جبل وغزوة ومعدن وبه آثار، قال ابن إسحاق: «حتى بلغ بحران، معدنا بالحجاز »، [السيرة: ابن هشام،ج2-46] ، حيث كانت به غزوة للنبي صلى الله عليه وسلم تسمى غزوة بحران، وكما يوجد عدة مناجم معدنية في وادي حجر.

ب-نيق العقاب: وهو نتوءات صخرية نحتتها عوامل التعرية تسمى بالمصقرة تقع إلى الشرق من الجحفة، قال الحموي: «موضع بين مكة والمدينة قرب الجحفة»، وفيه خبر عن عام الفتح، [معجم البلدان. 5- 333].

ج- موقع الجرف: وهو أثار تغيير مجرى وادي رابغ من الجحفة إلى رابغ ، وبعده ظهرت رابغ على ساحة الحوادث وأخبار الحج.

د- ثنية هرشى التاريخية: وهي عقبة شهيرة تقع جنوب الأبواء، وحولها كثير من المواقع التي ورد ذكرها في كثير من المصادر التاريخية.

5- النقوش والكتابات: وهي منتشرة في الواجهات الصخرية لعدة نواحٍ من مراكز المحافظة، وقد تنوعت بين الرسومات الصخرية والكتابات الثمودية والكتابات الإسلامية المبكرة، وقد رصدت وحققت كثيرا منها في كتاب وادي حجر، ويضاف إلى ذلك التشكيلات الصخرية المتنوعة.

6- المباني الحجرية أو المذيلات: هي مباني حجرية غامضة تتخذ عدة أشكال يظهر أنها كانت مدافن في العصور الموغلة، وتلك المباني منتشرة في الحرات نواحي حجر والأبواء وهرشى وشمال مغينيةوشرقالنويبع.

7- برج قلعة رابغ: وهو البرج الشمالي الغربي للقلعة التي بنيت في بدايات القرن العاشر. (مرآة الحرمين.ج2 -203).

8 - القرى التراثية: وتنتشر بعض القرى التراثية في مركز حجر ومركز الأبواء. ويضاف إلى ذلك بقايا الأسواق التراثية رابغ وسوق قبيلة بالأبواء وكذلك سوق الزويراء بحجر.

9- المطلات (المراقيب) : ويمكن من خلالها رؤية مساحات واسعة من النواحي المحيطة بها، وهي منتشرة في كثير من الأودية.

10- الآبار والصهاريج القديمة: ومنها صهريج الشيخ مبيريك وصهريج الشيخ حسين. بالإضافة إلى الكثير من الآبار القديمة التي يمتد تاريخ بعضها إلى ما قبل الإسلام: وهي منتشرة في كلية والقضيمة ورابغ وحجر ومستورة والأبواء، ومنها بئر مبيريك بالأبواء والتي كانت ومازالت تزود القوافل والمارين وساكني تلك النواحي بالمياه العذبة.

11- أماكن التطعيس: وهي الكثبان الرملية وأشهرها موقع الجابية شمال الأبواء.

12- الشواطئ: تمتلك محافظة رابغ كثير الشواطئ البكر. كما توفر الحواف الجبلية لسد وادي رابغ مطلات جميلة حيث إن السد يوفر أكبر تجمع للمياه بين مكة والمدينة .



وأخيرا؛ فإن كل ما سبق من مواقع قد تم رصدها سابقا في كتابي: [الأماكن التاريخية والأثرية والسياحية حول مدينة الملك عبد الله الاقتصادية برابغ، ط3-1433هـ]. وحاولت في هذه العجالة تسليط الضوء على أبرز تلك المواقع الأثرية والتراثية في تلك المنطقة، ولاشك أن حصرها والمحافظة عليها والتنقيب عن تلك القرى الشهيرة المندثرة كالجحفة وودان أمرٌ مهم للباحثين في التاريخ والآثار، وقد يكشف ذلك جانبًا مهمًا من تاريخها خاصة في وجود مركز تاريخ البحر الأحمر وغرب المملكة العربية السعودية الذي يهتم بدراسة تلك المنطقة التاريخية.

شعب المراعشة

قلعة الجحفة



البرج المتبقي من قلعة رابغ



حصن بني أسلم (قصر المناقيش)